من الطارق

الفصل الثاني

كرم الضيافة



من المشهور عن العــرب حسن ضيــافتهم وكرم عشرتهم: كان الرجل منهم ينحر شاته وليس عنده غيرها ليُكرم ضيفه، ويسهر عليه ليستريح، ويحرسه طوال الليل لينام، فإذا طلع الصبح غادر الضيف إلى مقصــده، وهنـــاك يثني على من أكرمه ويمــدح من أضافه، ورمضان ضيف وأنت من العرب والمقصد: الله!!

ولأنك تطيع أمـر ربك وتسـارع في تنفيذه وهو الذي يقول:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ النساء: ٨٦

لذا رددت التحية بمثلها بل وبأحسن منها، وكان أول ردّ عملي منـك على هدايا رمضان اليوم ما لا يُكلفك مالاً ولا متاعاً، بل ليس إلا حلاوة اللسـان وطيب المنطق، فتتفوه بكلمـات هي أغلى من الذهـب، وأرق من الحريـر، وأعذب من الماء، لتستقبل بها ضيفك الغالي من على باب الدار، وتقدم له هذه الهدية الغالية.. هدية:

١- القـــرآن:

الكيِّس الفطن من المسلمين اليوم هو من جعل النصيب الأوفى للعبادات من نَصيب القرآن لأنه شهر القرآن، وما كان نزول جبريل على نبينا ﷺ يراجعه القرآن في رمضـان إلا تذكيـراً عمليًا بهذه المناسبة، وتأكيــداً على صلة هذا الشهر العظيـم بكتـاب ربنــا الكريـم، وسأذكِّرك يا أخي هنـا بأمرين احرص على أن تقدِّمهما لرمضان ضيافةً وكرمـاً أثنـاء زيارته لك الا وهما:

•• أولا: كثرة التلاوة

- كان مالك إذا دخل رمضان ترك قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.
- وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على القرآن.
- وكان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه.

أخي! حذار أن يكون حالك عند ذكر هؤلاء إجلالاً ووقارًا، وعند شرح جدهم إعجابًا وانبهارًا، وعند التفكر في طيب عيشهم في الجنة أشواقًا واعتبارًا، أما عند الدعوة إلى سلوك طريقهم فالنكوص وقائمة الأعذار!!

يا لائمي في حبه

من ذا يلومهم؟! وهم يسمعون قول نبيهم ﷺ : **"من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها"**. (صحيح)

والقرآن ثلاثمائة ألف حرف تقريبًا، أي أن الختمة الواحدة تهب صاحبها ثلاث ملايين حسنة!! وفضل الله أوسع وأعظم ولسنا نقصد أن نعده أو نحصيه، لكنا هدفنا أن نرغب فيه ونشوق إليه، أما إذا ضوعفت الحسنة إلى سبعمائة ضعف، فمن الذي يطيق لذا حصرًا أو عددًا؟! وهل سمعتم عن تاجر يقعد عن تجارة رائجة، أو يزهد في أرباح سهلة وافرة؟!

وقد يقول قائل: لكن النبي ﷺ نهى أن يُختم القرآن في أقل من ثلاث، فيأتيك ابن رجب بالرد قائلاً:

"إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان والأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا لفضيلة الزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة".

وأخشى ما أخشاه أن يهجر عبد القرآن، فيغضب الله منه وينتقم بأن يختم على قلبه، بل ويغزوه الوباء والمرض، فيصبح إلى الشياطين أحب وإلى المنافقين أقرب، مصداق قول أوس بن عبد الله:

"نقل الحجارة أهون على المنافق من قراءة القرآن".

الأغاني تنسحب

حتى عاشقي الغنـاء اليوم لديهم فرصة سانحـة للتخلص من

آثاره وإدمانه، وذلك أنهم يقرؤون القرآن فتسري آياته نـورًا إلى قلوبهم لتطرد مزمار الشيطان وألحان العصيان، لأنهما ضـدان لا يجتمعان، وإن اجتمعا فلابد لأحدهما أن يطرد الآخر.

ولدى هؤلاء قدوة يرشدهم إلى الدواء إن كان قد أعياهم هجر ما اعتادوا عليه، وهو نابغة بني شيبان الذي كانٍ إذا أسـرف في إنشاد الشعر قبض على لسانه، ثم قال: "لأسلطنّ عليك اليوم ما يسوؤك: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

وإليك البشارة إن فعلت في حديث أنس بن مالك ﵁ قال: أخذ النبي ﷺ غُصنًا فنفضَه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، فقال: **"إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ينفضن الخطايا كما تنفض الشجرة ورقَها"**. (حسن)

●● ثانيا: لذة التدبر:

المذمومون!!

جعل نبينا ﷺ من أوصـاف الخوارج المـارقين من الدين أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، والمعنى أنهم لا يفقهون معناه ولا يعرفون مقاصده. قال النووي: المراد أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم، فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم، لأن المطلوب فهمه وتدبره بوقوعه في القلب.

مشروع ترميم

أخي! وقّع معي هذا العقد، واشترك في هذا المشروع، وجرِّب اليوم هذه الوصفة، فإن من جربها ذاق حلاوة القرآن، ومن ذاق حلاوة القرآن استحلى التهجد واستعذب السهر.

وبنود هذا المشروع خمسة وهي:

❣ دعوة للفهم:

كثير من الناس يختم القرآن في رمضان، لكن كم تمر علينا الآيات دون أن نفهم معناها أو الهدف منها، فما رأيك أن تجعل

تلاوتك هذا العام ذا مذاق خاص ومن نوع مختلف، وذلك بمزيد فهم لكل ما استعصى عليك فهمه من الآيات، وعندها فقط يصدق فيك قول الشاعر:

منع القـــرآن بوعده ووعيـده ... مـقــل العيــون بليلها لاتهجع
فهموا عن الملك العظيم كلامه ... فهمًا تذل له الرقــاب وتخضع

إنها ليست وصيتي أنا بل وصية العالم المجاهد عبد الله بن المبارك حين جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن في أي شيء أجعل فضل يومي: في تعلّم القرآن أو في طلب العلم ؟! فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم! قال: فاجعله في طلب العلم الذي يُعرِف به القرآن.

حسن صوتك:

لقول النبي ﷺ : **"ليس منا من لم يتغن بالقرآن"**. (صحيح)

قال المناوي: " يعني لم يُحَسِّن صوته به، لأن التطريب به أوقع في النفوس، وأدعى للاستماع والإصغاء، وهي كالحلاوة التي تجعل في الدواء لتنفيذه إلى أمكنة الداء، وكالتوابل التي يطيب بها الطعام، ليكون الطبع أدعى قبولاً له. لكن شرطه أن لا يُغيِّر اللفظ، ولا يُخلّ بالنظم، ولا يُخفي حرفًا، ولا يزيد حرفًا، وإلا حَرُم إجماعًا".

الخلوة أفضل:

قال تعالى:

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ المزمل: ٦

ومعنى ﴿ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا ﴾ : أكثر موافقة، ومنه قوله تعالى:

﴿ لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ التوبة: ٣٧

أي ليُوافقُوا، فالمعنى أشدّ موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان.. لانقطاع الأصوات والحركات بالليل.

ومعنى ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ : قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : "هو أجدر

أن يفقه في القرآن". (حسن)

ولذا كانت مراجعة جبريل للقرآن مع النبي ﷺ تتم ليلاً. قال ابن حجر: "لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية".

وسر آخر في روعة الليل وأنواره ألا وهو بركة الاختيار الإلهي، وقد باح لنا بهذا السر صاحب الظلال حين قال:

"والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه".

كرر الدواء:

عن جسرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذر يقول: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها، والآية:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

المائدة: ١١٨

وبتكرارك الآية الواحدة كأنك تدق باب كل آية تلتمس الهدى والنور والخير والبركات، فإذا فُتِح لك باب أي ذقت حلاوة أي آية، فإياك أن تغادره إلى غيره، بل الزم العَتَبة وردِّد هذه الآية مرة بعد مرة، وعندها فقط تنال اللذة وتذوق الثمرة وتنهال عليك الفتوح والفيوضات.

هي خلاصة خبرة ترجمان القرآن عبد الله بن عباس (فاسمعها واعمل بها واستقبلها استقبال من ينشد ضالة منذ زمن ولم يجدها إلا هذه الأيام.

عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة .. إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن اقرأ القرآن كما تقرأ.

والتكرار سيؤدي حتماً إلى العمل، لأنه تكرارٌ للأمر والنهي، وتذكير من بعد تذكير.

أنت المخاطب:

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : "إذا سمعت الله جل وعلا في كتابه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

فأرعها سمعك وأعطها أذنك فهي إما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه".

لم يكن عبدالله بن مسعود يقدِّم لنا نصيحة بقدر ما كان يعبِّر عن واقع يحياه الصحابة وأحداث يومية يعيشونها، ونضرب لهذا مثلين اثنين على سبيل المثال لا الحصر:

أ- لما نزل على رسول الله ﷺ قول الله تعالى:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾

البقرة: ٢٨٤

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، وعندها قال رسول الله ﷺ : **"أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"**، فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

البقرة: ٢٨٥-٢٨٦

ب- في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن الله جل وعلا لما أنزل قوله سبحانه وتعالى على رسوله:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

الأنعام: ٨٢

شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ : **"ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه:**

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان: ١٣

ولقد عبَّر سيد قطب عن علاقة هذا الجيل الفريد بالقرآن فقال:

"ولقد عاش الذين أُنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء، موصولين مباشرة بالله: يطلعهم أولاً بأول على ما في نفوسهم: ويُشعرهم أولاً بأول بأن عينه عليهم، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة، وحساب هذه الرعاية، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم: ويلجأون إليه أول ما يلجأون، واثقين أنه قريب مجيب".

الوريث الشرعي

ورث الفضيل بن عياض هذه الخصلة المباركة عن الصحابة، واسمع إلى شاهد الإثبات يحيى بن أيوب وهو يحكي شهادته:

دخلتُ مع زافر بن سليمان على الفضيل بن عياض بالكوفة، فإذا الفضيل وشيخ معه، فدخل زافر وأقعدني على الباب. قال زافر: فجعل الفضيل ينظر إلي، ثم قال: يا أبا سليمان.. هؤلاء أصحاب الحديث ليس شيء أحب إليهم من قرب الإسناد.. ألا أخبرك بإسناد لا شك فيه: رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى:

﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ التحريم: ٦

قرأ الآية، فأنا وأنت يا أبا سليمان من الناس. قال: ثم غُشيَ عليه وعلى الشيخ.

والآن.. حان وقت العمل، وحذارِ أن تكون اليوم فارغًا فتجد الميزان فارغًا يوم الحساب، بل املأ ما وسعك جهدك لتجد، وازرع ما حييت لتجني، وأمامك ثلاثة أسطر أخرى فاذهب فيها إلى أقرب تفسير، واختر سورة محببة إلى قلبك، ثم اقرأ معانيها جيدًا: ناويًا أن تقوم بها ليلتك، متناولاً الوصفة الخماسية: فاهمًا، ومجودًا، وخاليًا، ومكررًا، وشاعرًا أن السورة تخاطبك أنت وليس إلا أنت، وبعدها فحسب تكون قد عرفت الطريق إلى واحة طالما كان يأوي إليها الحبيب من شدة التعب ليستريح: وآن لك اليوم أيضًا أن تستريح وتأوي إلى واحة "**أرحنا بها يا بلال**".

....

....

....

والآن مع الهدية الثانية التي تُثبِت بها كرمك، وتنفي بها صفة البخل عنك، ألا وهي هدية:

٢- قيام الليل:

مقارنة!!

- كان ﷺ لا يدَع قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدًا، فما حالك أنت أيها الصحيح السليم؟!
- كان ﷺ إذا فاته ورده من الليل لانشغاله بأعباء الدعوة والجهاد قضاه نهارًا، فما أخبارك يا من تشكو الفراغ والملل؟!
- كان ﷺ إذا سمع الديك يؤذّن وَثَبَ إلى محرابه وهو سيد العابدين، فكيف بمحترفي الذنوب والغافلين؟!
- كان ﷺ يوصي أصحابه بقيام الليل وقد شهد لهم أنهم خير القرون فيقومون، فكيف بآخر القرون وفيهم المكبّلون بالشهوات الغارقون في الغفلات وينامون؟!

نداء الملائكة!!

قال ثابت البناني: الصلاة خدمة الله في الأرض، لو علم الله

شيئًا أفضل من الصلاة لما قال:

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ آل عمران: ٣٩

وإذا كان هذا في شأن الصلاة عمومًا فهو كذلك في صلاة الليل التي قال فيها رسول الله ﷺ: **"أفضل الصلاة بعد المكتوبة، الصلاة في جوف الليل"** (صحيح). وسر أفضليتها ما أخبر به ﷺ: **"أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن".** (صحيح)

اصطحاب الأهل مطلوب

- صحّ عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعليًا ليلاً فيقول لهما: **"ألا تصليان؟!"**.

- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، ثم يقول لهم: الصلاة .. الصلاة، ويتلو هذه الآية:

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ طه: ١٣٢

- وكان عبد الواحد بن يزيد يوقظ أهله كل ليلة ويقول: يا أهل الدار انتبهوا، فما هذه دار نوم، عن قريب يأكلكم الدود!!

- وكانت امرأة حبيب أبي محمد توقظه بالليل وتقول: قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت أمامنا ونحن قد بقينا.

وبذلك يتحول القيام إلى لغة واحدة يتخاطب بها المؤمنون، وعزفًا واحدًا عليه يلتقون، ولحنًا خالدًا لكل أفراد العائلة به يطربون، وإلا فمازالت ملاحظة ابن القيم في زمانه سارية المفعول في زماننا حيث قال رحمه الله:

"وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله،

وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يُكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه: ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظّه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قِبَل الآباء".

إلى من نسي القرآن

يا من سبق له أن حفظ جزءاً من كتاب الله ثم ضيّعه .. لديك اليوم فرصة ثمينة لتسترد ما تفلّت منك، وتستعين على ذلك بقيام الليل، كما سبق وأوصاك النبي ﷺ في وصية أغلى من الذهب قائلاً:

"إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه". (صحيح)

والآن مع أسطر العمل، فلا تغادر الأسطر الثلاثة المقبلة قبل أن تعرف وجهتك وتحدد هدفك، وهدفك لا وصول إليه دون تحديد ثلاثة أشياء رئيسَة: القدر الذي ستراجعه من القرآن كل يوم، والوقت الذي ستراجع فيه، ووقت القيام.

....

....

....

هل انتهيت أم لا؟ إذا لم تنفّذ الوصية فوراً فسيستدرجك الشيطان لتنسى، وستترك كتابي في خزانة الكتب وأنت عنه تلهى، وأخشى أن تنشغل بدنياك فلا تواتيك الفرصة مرة أخرى لتقرأ هذه الكلمات فتنعدم الذكرى، وفي المقابل أؤكد لك أنك إذا نفذت الوصية فستفاجأ آخر الشهر بإنجاز لم يكن يخطر على البال، وذلك بسبب البركة الثنائية المضاعفة: بركة القرآن وبركة القيام، وسيحفّزك ذلك ولاشك على الاستمرار في المراجعة بعد رمضان إن لم يكن مضافاً إليها جديد الحفظ: بعد أن كسرت حاجز البدء وذقت لذة القرب وعرفت طعم مناجاة الحبيب بأعذب كلامه.

أجب زوجتك!!

قال أحمد بن أبي الحوارى: سمعتُ أبا سليمان الداراني يقول: "بينما أنا ساجد إذ ذهب بي النوم، فإذا أنا بها -يعني الحور- قد ركضتني برجلها، فقالت: حبيبي! أترقد عيناك والملك يقظان، ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم، بؤسًا لعين آثرت لذة نوم على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقي المحبون بعضهم بعضًا، فما هذا الرقاد يا حبيبي وقرة عيني، أترقد عيناك وأنا أُرَبَّى لك في الخدر منذ كذا وكذا، فوثبتُ فزعًا، وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي إلى الآن!!".

وهجر الفراش خاصة مع شدة التعب شاق ولا ريب، لكن لا عجب، فلابد مع غلو السلعة من غلو الثمن، وقد سبق في الكتاب أنه لا يقوى على دفع الثمن مستريح البدن.

الأجور الكبيرة على الأعمال اليسيرة

قال ﷺ : **"إنه من قام مع الإمام حتى ينصرف كُتِب له قيام ليلة"**. (صحيح)

قيام ليلة واحدة مع الإمام تعدل قيام الليل كله، وهذا غيض من فيض الخيرات في رمضان، والله إن السجلات ملأى بالذنوب والسيئات، أفلا نغسلها بقيام ليلة واحدة!! إن أنهارًا من المغفرة تجري أمامك، فهلاّ انغمست فيها حتى تطهرك، وتمحو عنك صحائف طالما سودتَها، وتُكفِّر ذنوبًا طالما حالت بينك وبين القبول.

يا طويل النوم ...

كان عبد العزيز بن أبي رواد يُفرَش له الفراش فيضع يده عليه ويقول: ما ألينك ولكن فراش الجنة ألين منك، ثم يقوم إلى صلاته فلا يزال يصلي حتى الفجر.

أخي! هل تعلم لم فعل ذلك؟! أنا أخبرك: لأنه خاف أن يفوته

شرف:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ السجدة: ١٦

ومدح:

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الذاريات: ١٨

فيأتي يوم القيامة فلا يجد جائزة:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

السجدة: ١٧

أيكم صاح في الغافلين؟!

عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال: كنا نغزو مع عطاء بن ميسرة الخراساني فكان يحيي الليل صلاة، فإذا ذهب من الليل ثلثه أو نصفه نادانا وهو في فسطاطه يسمعنا: يا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، ويا يزيد بن يزيد، ويا هشام بن الغاز، ويا فلان ويا فلان قوموا وتوضئوا وصلوا، فإن قيام هذا الليل وصيام هذا النهار أيسر من شراب الصديد ومقطعات الحديد.. الوحا الوحا.. النجا النجا، ثم يقبل على صلاته.

فأيكم وريث عطاء بن ميسرة؟! ومن منكم سيستيقظ الليلة ليوقظ جيرانه وأحباءه وأهله وأقرباءه؟! فإن كان فيهم معرض ألحّ عليه ورغّبه، وإن كان فيهم كسول مرّ عليه واصطحبه معه، واضعًا في ذهنه أنه نال الثواب وإن لم يستجب له أحد .. حاز الأجر وإن نام من دعاهم حتى الفجر.

والآن إلى ثلاثة أسطر أخرى فارغة: أقصد ..ممتلئة .. تفيض بالعمل وتزخر بالأمل، لتأتي فيها بورقة بيضاء: وتكتب أسماء ثلاثة من أصحابك أو جيرانك ستتفق معهم على إيقاظهم لصلاة القيام، وترغّبهم فيها وتُحببها إليهم، وتذكّرهم بفضلها وثوابها، وتستعين في ذلك بالله فاتح القلوب وشارح الصدور: فتدعوهم

بالنهار وتدعو لهم بالليل مع النهار.

....

....

....

٣- الصدقة

كان رسول الله ﷺ أجود الناس: كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان، وذكروا في مضاعفة جوده في رمضان فوائد وأسبابًا كثيرة:

- منها شرف الزمان ومضاعفة الأجر فيه.
- ومنها إعانة الصائمين والقائمين على طاعاتهم، فينال من أعانهم مثل أجرهم.
- ومنها أن الجزاء من جنس العمل، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.
- ومنها أن الصائم لا بد أن يقع منه خللٍ ونقص، والصدقة تجبر ما فيه من الخلل والنقص، ولذا مثلاً شُرِعت صدقة الفطر.
- ومنها أن الصائم يدع طعامه وشرابه لله، فإذا بذله لغيره عند الإفطار كان ممن أطعم الطعام على حبه، لينال بذلك ثواب الإيثار.

أشكال وألوان

وللصدقة صور كثيرة:

١- إطعام الطعام:

قال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ الإنسان: ٨

لذا كان السلف الصالح يحــرصون على إطعام الطعام ويقدمونه على كثير من العبــادات، يسوقهم إلى ذلك خوف من أن تصيبهم دعوة نبيهم: **"لا خير في من لا يضيف"**. (صحيح)

ويكفينا في ذلك أننا نقتدي بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام المكنى أبا الضيفان لأنه كان يذهب إلى الضيف فيأتي به إلى منزله. قال مجاهد في قوله تعالى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ الذاريات: ٢٤

إنما كانوا مكرمين لأن الخليل إبراهيم خدمهم بنفسه!! فهل لك في الاقتداء بخليل الرحمن فتخدم ضيفك اليوم بنفسك؟!

ومن أعلى درجات إكرام الضيف إطعام الطعام ولو كنت لا تملك غيره. جاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه الإمام رغيفين كان يعدهما لفطوره ثم بات جائعاً وأصبح صائماً، وهذا أحد الصالحين يشتهي طعاماً وكان صائماً، فوضع بين يديه عنده فطوره، فسمع سائلاً يقول: من يقرض الوفي الغني؟! فرد عليه وقال: عبده الفقير من الحسنات، فقام فأخذ الصفحة فخرج بها إليه وبات ولم يدخل جوفه شيء.

أخي! إذا أعجبتك وجبة طعام اليوم فقدمها للفقير، فإن لم تفعل فقدم منها للفقير، وستجد طعمها في الجنة لكنه أشهى، أما ما بخلت به وأكلت فمآله بيت الخلاء بعد ساعة!!

قانون البركة

نصّ عليه النبي ﷺ في قوله: **"طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية".**

(صحيح)

قال ابن الأثير: يعني شبع الواحد قوت الاثنين، وشبع الاثنين قوت الأربعة، وشبع الأربعة قوت الثمانية، ومنه قول عمر بن الخطاب عام الرمادة: لقد هممت أن أُنزل على أهل كل بيت مثل عددهم، فإن الرجل لا يهلك على نصف بطنه.

وهذه البركة في الطعام مصدرها قوة إيمانٍ بموعود الله دفعت صاحبها إلى الإيثار وبذل الطعام على حبه والرضا بنصف بطن في سبيل الغير، فيكافئ الله صاحبها بقوة دين وحسن خلق.

قال عبدالواحد بن زيد: من قوي على بطنه قوي على دينه، ومن قوي على بطنه قدر على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرته في دينه من قبل بطنه فذاك رجل في العابدين أعمى.

لو لم أكن لتمنّيت!!

قال ﷺ : **"إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جعلوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم".** (صحيح)

ومعنى أرملوا: قارب زادهم على النفاد، ووصلت أيدي الآخذين إلى الرمل الذي يكون أسفل الـزاد، ولو لم ينل الأشعريـون غير هذا المدح طوال حياتهم لكفاهم، ولعل هذا المدح سببه أن عبادة إطعام الطعام عبادة ولأدة ينشأ عنها فضائل كثيرة منها: الحب في الله، ومجالسة الصالحين، وتوثيق التعارف، ورفع الكلفة بين الإخوان، وإعانتهم بهذا الطعام على طاعة الله.

المدينة الفاضلة

قال رسول ﷺ :

"ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به". (صحيح)

ولا يوجد مسلم على وجه الأرض ليس له جيران محتاجون وكثير منهم يبيتون جياعا، وذكر بعض العلماء أن كل من سمع النداء فهو جار، وقال الحسن حين سئل عن الجار: أربعين دارا أمامه وأربعين خلفه وأربعين عن يمينه وأربعين عن يساره، ولذا كان عبد الله بن أبي بكرة ينفق على جيرانه أربعين جارًا من كل جانب، ويفطر على الكسرة.

بل يصلنا تحذير نبوي مخيف نقله إلينا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

"كم من جار مُتعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب.. هذا أغلق بابه دوني فمنع معروفه". (حسن لغيره)

والجار قد يكون قريباً وقد يكون بعيداً، وكلما كانت دار الجار أقرب كان أهلها أكثر استحقاقا لإحسانه، وتصور معي لو أن كل مسلم وأسرته اقتدوا بابن أبي بكرة، واجتهدوا في الإحسان لا أقول إلى أربعين داراً من كل ناحية من حولهم بل إلى ثلاث دور فحسب، وليس شرطًا أن يكون هذا الإحسان: الإحسان المادي بل يدخل فيه الإحسان المعنوي، أليس هذا هو وصف المدينة الفاضلة التي تخيّلها الفلاسفة في أحلامهم وما دروا أنها في إسلامنا؟

حكمة الصوم من أمير

قال أحمد شوقي عن الصوم:

"حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، ظاهره المشقة وباطنه الرحمة.. يستثير الشفقة ويحض على الصدقة.. يكسر الكبر.. ويعلم الصبر.. حتى إذا جاع من تعوّد الشبع، وحرم المُترف ألوان المتع، عرف الحرمان كيف يقع، وألم الجوع إذا لذع".

وذلك لأن لسان الأحوال أشد فصاحة من لسان الأقوال، فلو أن فقيراً كابد الجوع ثلاثة أيام لم يدخل جوفه فيها شيء، ثم وقف بعدها ثلاثا مثلها يصوّر للأغنياء ما صنعه الجوع به، وكان حاله أبلغ في التعبير من مقاله لما بلغ تأثيره فيهم معشار ما تبلغه جوعة واحدة في نفس غنيٍّ مترف منهم.

لا تجرّب مع الله

والتجربة العملية تثبت أن المعونة تأتي من الله على قدر البذل من العبد، وأن رزق العبد يأتيه على قدر صدقته: فمن زاد زاد الله له، ومن أمسك أمسك الله عليه، واسمع قصة عائشة رضي الله عنها حين جاءها مسكين فسألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه! فقالت: أعطيه إياه! قالت: ففعلت. قالت: فما

أمسينا حتى أهدى لنا أهل بيت أو إنسان - ما كان يُهدي لنا - شاة وكفّنها أي غطاها بأرغفة، فدعتني فقالت: كلي من هذا.. هذا خير من قرصك!!

رحم الله أم المؤمنين عائشة وهي تقول لنا بلسان الحال: اطلبوا الرزق بالصدقة، وإن كانت هذه هي مكافأة الله لها في الدنيا، فالآخرة خير وأبقى، فكل ما خطر ببالك فالجنة فوق ذلك وأعلى من ذلك وأجلّ من ذلك.

لا تحقرن صنيع الخير تفعله
ولا صغير فعال الشر من صغره
فلو رأيت الذي استصغرت من حسن
عند الثواب أطلت العجب من كبره

٢- صِم أضعاف عمرك!!

قال ﷺ: **"من فطّر صائمًا كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا"**. (صحيح). وبهذا الحديث وغيره استدل من فضّل الغني الشاكر على الفقير الصابر.

قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام مرغّبا لك في الثواب ومشجّعا على بذل المال:

"فمن فطّر ستة وثلاثين صائمًا في كل سنة: فكأنما صام الدهر، ومن كثّر بفطر الصائمين على هذه النية: كتب الله له صوم عصور ودهور".

٣- بذل المال:

وهو الصورة المباشرة الواضحة التي تدفع فيها بالمال إلى يد الفقير.

غنى يعني أسى

عبد الطمع يده مغلولة إلى عنقه والحر يداه مبسوطتان، ومن سادة الأحرار طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فعن طلحة بن يحيى بن طلحة قال: حدثتني جدتي سعدى بنت عوف، وكانت محل إزار

طلحة بن عبيد الله (زوجته) قالت: دخل عليّ طلحة ذات يوم وهو خائر النفس فقلت: مالي أراك كالح الوجه؟ وقلت: ما شأنك؟ أرابك مني شيء فأعينك؟ قال: لا: ولنعم حليلة المرء المسلم أنت. قلت: فما شأنك؟ قال: المال الذي عندي قد كثر وأكربني. قلت: ما عليك.. اقسمه. قالت: فقسّمه على الفقراء حتى ما بقي منه درهم واحد. قال طلحة بن يحيى: فسألتُ خازن طلحة: كم كان المال؟ قال: أربعمائة ألف!!

خيانة!!

ألا يستحي المسلم أن يشهد شهر الجود والكرم وإخوانـه في فلسطين وغيرها يتضوّرون جوعًا من شدّة الألم، ألا يجد غضاضة أن تزدحم مائدته بألوان الطعام وأنواع المتع وإخوانه لا يجدون ما يسدون به الرّمق؟! ألا يخجل من أن يرفع يديه طالبًا الرحمة في شهر الرحمة وليس في قلبه مثقال ذرة من رحمة؟!

كان حاتم الطائي يقول في الجاهلية:

أمـا والذي لا يعلم الغيـب غيـره
ويحيي العظـام البيض وهـي رميـم
لقد كنتُ أطوي البطن والزاد يُشتهى
مخـافـة يـومًا أن يُـقـال لئيـم

فهل طويت بطنك يوما في سبيل الجائعيـن من إخوانك الذين يستغيثون بك في شتى بقاع الأرض؟! هذا رجـل يفعل ذلك أيام جاهليته وهو لا يرجـو ثوابًا أو يخشى عقابًا، فكيف بمن شُوّق إلى الجنة غاية التشويق، ووُعد بها إن هو بذل؟!

وحاتم هذا حتى قبل أن يُسلم كان يخرج بالليل ويقول لغلامه: التمس لي ضيفًا الليلة: فإن أتيت به فأنت حر!! ومصائب المسلمين اليوم جعلتك لا تحتاج إلى من يلتمس لك ضيفا أو يبحث عن محتاج!!

أخي! لو كنت مكانك لقمت فور قراءة هذه الصفحة، فأخرجت كل ما في جيبي من مـال وجعلته لهم، فإن لم تطاوعني يميني

فنصفه، فإن غلبتني شهوتي فثلثه، وإلا فعُشرُه، وليس بعد العُشر من الخير مثقال حبة خردل، وسأترك لك الآن ثلاثة أسطر أخرى فارغة لتملأها بهذه المهمة.

....

....

....

والآن.. هل انتهيت؟ أعرف أن الأمر قد يكون صعبًا لأول وهلة، لكن حسبك أن له حلاوة قلبية لا توصف، ولذة روحية تعجز عن وصفها الكلمات، فإن كنت ماديًا لا تقنع إلا بالآثار الملموسة والنتائج المحسوسة ولا تفهم إلا لغة المعادلات والأرقام، فانظر حولك والمح أثر الصدقة الناصع في درء المصائب وستر المعايب وتيسير العسر وإطالة العمر، وغير ذلك من الآثار التي لا توصف ثم أنتم تبخلون!!

الفقراء أيضًا يتصدّقون!!

يا من حُرِم نعمة المال واكتوى بنار الفقر تمهّل!! فلم يغلق دونك الباب ولم تُحرم الثواب، فاخلُ بنفسك في دار المحاسبة ساعة، وابحث عن أي نعمة من نعم الله عليك مضاعة، سبق وأنعم بها عليك ثم ألهتك الأيام عن أغلى البضاعة، ثم تفكّر كيف ستنفق منها وعلى من ستتصدّق، وبعدها، نافس أصحاب الأرصدة واسبق أرباب الأموال قبل أن يسبقوك إلى أنهار الجنة وأحضان الحور.

جاء رجلٌ إلى الحسن بن سهل يستشفع به في حاجة له فقضاها له الحسن، فأقبل الرجل يشكره، فقال الحسن: علام تشكرنا؟! نحن نرى أن للجاه زكاة كما أن للمال زكاة، ثم أنشأ يقول:

فُرضت عليّ زكاةُ ما ملكت يدي
وزكاة جاهي: أن أُعين وأشفعا
فإذا ملكت فجُد فإن لم تستطع
فاجهد بوسعك كلّه أن تنفعا

ومع هذه المفاجأة التي أتحفت رمضان وأدخلت السرور على قلبه، فأصرَّ على نقل البشرى إلى رب العالمين، وتخليد اسمك بذكره في حضرته، وهي خبر اشتراكك في:

٤- مشروع الثلاثين عمرة:

قال رسول الله ﷺ : **"من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة"**. (صحيح). هذا في كل الأيام فكيف بأيام رمضان؟

وليقرِّب النبي ﷺ هذا الثـواب الأخـروي الغيبي إلى الأفهـام والعقول شبَّهه بمثل دنيوي محسوس، فعن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرَّة، فقال رجل: يا رسول الله ! ما رأينا بعث قوم بأسرع كرَّة وأعظم غنيمـة من هذا البعث، فقال النبي ﷺ : **"ألا أخبركم بأسرع كرَّة وأعظـم غنيمة من هذا البعث؟! رجل توضأ في بيته فأحسن وضوءه، ثم تحمل إلى المسجد فصلى فيه الغداة، ثم عقب بصـلاة الضحى، فقد أسرع الكرَّة وأعظم الغنيمة"**. (صحيح).

ولأنك كريم أبيت إلا أن تعلِّق الزينات والأنوار في مدخل بيتك احتفاءً بالضيف الكريم، أبينا إلا أن ننشر خبرك هنا، ونعرض لواحدة من أجمل هذه الزينات ألا وهي زينة:

٥- الاعتكاف:

الاعتكاف هو زيارة الله في بيته، والانقطاع إليه فيه، وحقٌّ على المزور أن يكرم زائره، لذا كان النبي ﷺ يعتكف كل رمضان عشرة أيام: فلما كان العام الذي قُبض فيه اعتكف عشرين يوما، وآكدُ هو الاعتكاف في العشر الأواخر تحريًا لليلة القدر، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، قد عكف قلبه وقالبه على ربه وما يُقرِّبه منه، فما بقي له همٌّ سوى الله وما يرضيه.

لذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولو لتعليم علم وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه.

الحكمة من حكيم

قال ابن القيّم:

"وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه: عكوف القلب على الله تعالى وجمعيته عليه والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلا عن أنسه بالخلق، فيُعِدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له ولا ما يُفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم".

الوصفة الذهبية

والاعتكاف المطلوب اليوم ليس الاعتكاف الذي يجعل من المساجد مهاجع للنائمين، ومجالس للمتزاورين، وموائد للأكل، وحلقاتٍ للضحك، ومرتعًا لفضول الكلام، فهذا اعتكاف لا يزيد صاحبه إلا قسوة في القلب وبعدًا عن الله، إما الاعتكاف المنشود فهو الذي تسيل به دموع الخاشعين وترق به قلوب المشفقين وتُرفع فيه أكف المتضرعين، إنه الاعتكاف الذي لا يُصرف منه لحظة في غير طاعة، ليكون بذلك علاجًا فعّالاً لثلاثة أمراض تعتبر من أهم علامات موت القلب، وهي التي أشار إليها ذو النون في قوله:

"ثلاثة من علامات موت القلب: الأنس مع الخلق، والوحشة في الخلوة مع الله، وافتقاد حلاوة الذكر".

وبهذا فقط يمكن أن نعتبره أقصر الطرق إلى الإخلاص. قال

ذو النون: "لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة، لأنه إذا خلا لم ير غير الله، وإذا لم ير غير الله لم يحركه إلا حكم الله، ومن أحب الخلوة فقد تعلّق بعمود الإخلاص، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق".

ومن أدلة كرمك اليوم أيها الأخ الكريم أن تنثر أزكى العطور وأشذاها في جنبات بيتك، لتفوح أثناء الزيارة وتنشر البشر والسعادة، ومن أجمل هذه العطور اليوم عطر نفّاذ اسمه:

٥- الدعـــاء:

التوأمان

مما يلفت الأنظار أن آيات الصيام جاء عقبها ذكرُ الدعاء:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

البقرة: ١٨٦

إشارةً إلى أن الصائم مرجوٌّ الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مباركة دعواته، وإلى استحباب الدعاء عند كل فطر في رمضان.

تأمل شهيد القرآن سيد قطب في هذه الآية بشفافية الأديب ورقة الشاعر ثم أفاض علينا بما يلي:

"أية رقة؟ وأي انعطاف؟ وأية شفافية؟ وأي إيناس؟ وأين تقع مشقة الصوم ومشقة أي تكليف في ظل هذا الود، وظل هذا القرب، وظل هذا الإيناس؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة، إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش منها المؤمن في جناب رضيّ، وقربى ندية، وملاذ أمين، وقرار مكين".

فلنخصص عشر دقائق كل يوم قبيل الإفطار نتوضأ فيها ونتوجه الى القبلة ونرفع فيها أكف الضراعة إلى العلي القدير

أن يرفع البلاء عن إخواننا في فلسطين والعراق والشيشان وكشمير وغيرها من بلاد الإسلام، وكيف تصدق من يحدث نفسه بالشهادة ويبخل على المجاهدين لا أقول بماله بل بحركة لسانه وذلك في دعائه ثم يزعم أنه صادق!!

حذار أن تغضبه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **"إنه من لم يسأل الله يغضب عليه"**. (صحيح) قال المناوي: "لأن تارك السؤال إما قانط وإما متكبر، وكل واحد من الأمرين موجب الغضب".

وتارك الدعاء قد يكون قلبه متعلقًا بغير الله فيستوجب غضب الله عليه ولا تنقضي حاجته عقوبة له على هذا الذنب، وما كان حمدون القصَّار مبالغا حين قرَّر أن: "استعانة المخلوق بالمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون".

ولذا لما رأى وهب بن مُنبِّه رجلاً يأتي الملوك ويسألهم من عطاياهم لم يتمالك نفسه، فانطلق يأمره وينهاه قائلاً: ويحك!! تأتي من يُغلق عنك بابه، ويُظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه الليل مع النهار، ويظهر لك غناه، ويقول ادعني أستجب لك!!

شاد الملوكُ قصورهم وتحصَّنوا
من كلِّ طالب حاجةٍ أو راغب
غالوا بأبواب الحديد تمنُّعًا
قد بالغوا في قُبحِ وجه الحاجب
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن
بادي الضَّراعة طالبًا من طالب

ولأنه بضدها تتميَّز الأشياء: أتيتُ لك في المقابل بمثل آخر يصوِّر القوة الشامخة وعزة النفس المستمدة من رب العزة، وذلك من سيرة أستاذ الإباء والكرامة الشيخ عز الدين بن عبد السلام،

الذي أراد أن يعلِّمنا الدرس عن طريق هذه المبالغة الطريفة، فكان رحمه الله إذا قرأ عليه أحد طلابه بابًا من أبواب العلم وانتهى يقول له: اقرأ من الباب الذي يليه ولو سطرًا: فإني لا أحب الوقوف على الأبواب!!

سلسلة المفاتيح الخمسة

المفتاح الأول:

أحسن الظن بربك:

قال ﷺ : **"قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيرا فله، وان ظن شرا فله"**. (صحيح)

قال الشوكاني شارحًا:

"فيه ترغيب من الله لعباده بتحسين ظنونهم، وأنه يعاملهم على حسبها: فمن ظن به خيرًا أفاض عليه جزيل خيراته، وأسبل عليه جميع تفضلاته، ونثر عليه محاسن كراماته وسوابغ أعطياته، ومن لم يكن في ظنه هكذا لم يكن الله تعالى له هكذا".

المفتاح الثاني:

ارفع لواء التوبة:

كلمة السر لفتح باب الإجابة: إنابة، وإلا فكيف يجيبك إلى طلباتك ويثق في أقوالك وأنت تعلن عليه الحرب بأفعالك؟! وقد أوجز بشر بن الحارث الحافي هذا الشرط أبلغ الإيجاز في ثلاث كلمات حين عرّف الدعاء بقوله: الدعاء ترك الذنوب.

المفتاح الثالث:

أدمن أكل الحلال:

قيل لسعد بن أبي وقاص: تُستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ قال: ما رفعتُ إلى فمي لقمة إلا وأنا عالم من أين مجيؤها؟ ومن أين خرجت؟

وهذا هو الورع الذي عناه محمد بن واسع في قوله: يكفي من الدعاء مع الورع اليسير كما يكفي القدر من الملح.

المفتاح الرابع:

أظهر فقرك واعترف:

هي طريقة الأنبياء وتربية الخُلَّص الأنقياء. قال تعالى عن دعاء يونس عليه السلام:

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٧

وقال عن دعاء آدم وحواء عليهما السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٢٣

وقال عن موسى عليه السلام:

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ القصص: ٢٤

وقال عن أيوب عليه السلام:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٨٣

وقال نبينا ﷺ يعلّم أبا بكر رضي الله عنه أن يدعو في صلاته: **"قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"**. (صحيح)

وقد رأى مورّق العجلي أن تلك الحال لا بد أن تكون حال كل مؤمن، ومن اقتفى الأثر حطّ رحاله في الجنة مع خير البشر. قال رحمه الله: ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا كمثل رجل في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب.. يا رب.. لعل الله ينجيه.

ونبرة الدعاء هذه في زماننا أوجب لأنه زمان فتن واختلاط الحق بالباطل وشيوع المنكر وعلو أهله وتواري المعروف وأهله مما جعله قريباً من زمان قال عنه حذيفة بن اليمان:

ليأتينَّ على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغريق.

المفتاح الخامس:

قدّم دعاء الرخاء:

قال الضحاك بن قيس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، فإن يونس عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

الصافات: ١٤٣-١٤٤

وإن فرعون كان طاغيًا ناسيًا لذكر الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت، فقال الله تعالى:

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس: ٩١

خير في بطن الشر!!

قال سفيان بن عيينة: ما يكرهُ العبدُ خيرٌ له مما يحب!! لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه.

ويشرح ابن تيمية العبارة السابقة في استفاضة بليغ فيقول:

"من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه: ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجدب أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذّات بدنية ونعم دنيوية، قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن، وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبّر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: يا ابن آدم! لقد بورك لك

في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك، وفي بعض الإسرائيليات: يا ابن آدم! البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك".

أخي!

هذه الوصايا هدايا، جملها قصيرها لكن معانيها غزيرة:

بالغ في السؤال يُغدق بالنوال.. الزم الأعتاب تنجُ من العتاب.. الإلحاحَ الإلحاحَ لإدراك الفلاح.. الاغترافَ الاغترافَ من بحر الاعتراف.. الخشوع والخضوع لتأكيد الرجوع.. لسان الدمع أفصح من لسان الشكوى.. أقصر طريق إلى العفو البكاء.. مفتاح باب القبول الرجاء، وأخيراً: حسن الظن والأمل ضائعٌ دون العمل، فقدّم الثمن وارتقب المنن.

لؤلؤة الدعاء: الاستغفار

الاستغفار هو طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما، فالأول فيه نفع لأنه خيْر من السكوت: ولأنه يعوّد اللسان قول الخير، والثاني نافع لتطهيره القلب من أمراضه، والثالث أفضل الجميع وهو عين التوبة، وهذا هو النوع الذي عناه ذو النون لما سئل عن الاستغفار فقال:

"الاستغفار اسم جامع لمعان ستة، أولهن: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنوب أبدا، والثالث: أداؤه إذا كان فرضا ضيعته فيما بينك وبين الله عز وجل، والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم ويصالحهم عليها، والخامس: إذابة كل لحم ودم نبت من الحرام، والسادس: إذاقة البدن ألم الطاعات كما ذاق حلاوة المعصية".

واحذر كل الحذر من وقوع الخلاف بين اللسان والقلب، فإنه نذير شؤم وعلامة دمار. قال ابن رجب:

"من استغفر بلسانه وقلبه معقود، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول عنه مسدود".

كلهم مدحوه

أولهم وسيِّدهم هو رسول الله ﷺ الذي قال: "**من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار**" (حسن). ثم جرّب الصالحون الوصية فوجدوا الحلاوة كلها والخير أكمله، فانطلقوا ينصحونك:

- قال أبو هريرة رضي الله عنه : الغيبة تخرق الصيام و الاستغفار يُرقّعه، فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مُرقّع فليفعل.
- وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار و صدقة الفطر، فإن الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يُرقِّع ما تخرّق من الصيام باللغو والرفث.
- وقال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذّبه.
- وقال الحسن البصري: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأين ما كنتم، فإنكم لا تدرون في أي وقت تنزل البركة.

البشريات الغاليات في الثمان آيات

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

"ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت:

أولهن:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ثلاثًا متتابعات.

والرابعة:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

والخامسة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾

والسادسة:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

والسابعة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

والثامنة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

والآن جاء دورك، لتخلو بنفسك، وتستجمع قلبك، وتذكر ذنبك، وتستغفر بعدها استغفارًا عميقًا تحقق فيه شروط ذي النون الستة، وكما أن الورقة أمامك بيضاء نقية، فإن الله كريم وببركة استغفارك هذا سيجعل صحيفتك مثلها بيضاء: ليس فيها ذنب واحد يسوّدها، أعلم أن عوائق الفهم والعمل كثيرة تبنيها الذنوب كل يوم وتراكمها، لكن حسبك أن يحطّمها هذا الذكر المبارك، فهيا يا أخي أنت ومن معك من إخوانك من قُرّاء هذه الكلمات.

وقد خصّصتُ لكم هذه المساحة البيضاء وهي أكبر من مثيلاتها السوابق: لأن ذنوبنا كثيرة كثيرة تحتاج استغفارًا طويلاً لا تكفيه هذه الصفحات بأسرها: إلا أن يتغمّدنا الله برحمته.. استغفروا.

....

....

....

....

قبـــل المغـــادرة

أخي! الضيف مرتحل غدًا.. أسرع قبل أن يهرب الثواب من يدك، وتفقد الجنة في غدك.. بادر إن كنت تطمح أن تكون من الفائزين.. دع عنك الكسل وإن كان طعمه أحلى من العسل فإن آخره علقم، لذة الكسل ساعة وتزول، وتعب الطاعة يعقبه فرح لا يزول.

ومرَّ بـــدار المتـــرفين وقل لهـــم
ألا أين أربـــاب المدائن والقـــرى
ومرَّ بـــدار العابـــدين وقل لهـــم
ألا أذهب الموتُ المشقّة والعنى

أخي! الشهر قصير ما يحتمل التقصير، وقدومه عبور لا يقبل الفتور، ورمضان زائر غير مقيم، فاحرص على استقباله بعزم حديدي وإرادة صخرية تتحطم عليها أمواج الأهواء، وضع نصب عينك خلاله.. أنك إذا استطعت أن تتغلب على نفسك وصلت إلى الهدف، وإذا لم تستطع .. خسرت المعركة.

أخي! ندمك عند انتباهك من غفلتك، وارتعادك خوفا من عاقبة خطيئتك، وبكاؤك ندما على ما فات من ثواب طاعتك يساوي اليوم الكثير، ودمعة ندم من المذنب على سيئاته أشرف من ألف ركعة من العابد مع إعجابه.

أخي! لولا ظلمة المعصية ما أشرق نور التوبة فلا تبتئس، بل قم وخذ ثأرك من شيطانك الآن، واستخلص نفسك من أسره بالإحسان، واهرب من سجنه إلى حصن التقوى، بل واهدم حصونه بأسلحة التوبة، واقصم ظهره بكلمات الذكر، واغتنم مواسم الفضل التي يشكو فيها ذل الهزيمة والهوان: بل ويدعو فيها بالويل والثبور لما يرى من تنزل الرحمات وكثرة العتقاء وتبديل السيئات.

أخي! أسرع قبل أن يُغلق عليك الباب، وأعني به باب القبر!! فإنك لا تدري متى ينقضي العمر، وكم من متهلل بالشهر وهلاله

اختطفه الموت في خلاله، ولو أنك عرفت رقمك التسلسلي في قائمة زوار هذه الدنيا لأدركت بحق قرب وصولك إلى الآخرة، فيا شدة الخجل عند حضور الأجل! ويا حسرة الفوت وقت قدوم الموت!

أخي! أيمر عليك العام تلو العام وقلبك غارق في الأوهام والأحلام!! أو كلما ابيض شعرك بمرور الأيام اسودّ قلبك من كثرة الآثام!! أخبرني بالله عليك إذا كنت في شبابك غافلا، وفي مشيبك مسوّفا، فكيف تنجو؟!

أخي! انتفض من فورك، فقبيح بمن كان بين الصفين أن يتشاغل بغير القتال، ووالله ما هي إلا أيام معدودة وساعات محسوبة تمر مر السحاب، ثم تُودّع شهر الطاعات وموسم البركات وزمن مضاعفة الأجور والحسنات، فلا تحقرنّ من المعروف شيئًا وإن قلّ، فإنه سبحانه يجازي بمثاقيل الذرّ، ويُكافئ على ذرّات البِر بالرضوان والقصور العامرة بالياقوت والدر.

أخي! الخلود في الدنيا لا يُسأل، والفناء آت لا محالة، فخاطب نفسك اليوم وقل لها: كل يوم من هذه الأيام يمر ولم أزدد من الله فيه قربا، فما هو من عمري وما هو محسوب في زمرة الأيام.

إذا مرّ بي يــومٌ ولــم أستــزد هــُدى
ولم استفد خيرًا فما ذاك من عمري